

تفسير ابن كثير

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو نوح قراد حدثنا عكرمة بن عمار حدثنا سماك الحنفي أبو زميل حدثني ابن عباس حدثني عمر بن الخطاب هـ قال : لما كان يوم بدر نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة فاستقبل النبي صلى الله عليه وسلم القبلة وعليه رداؤه وإزاره ثم قال [اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبدا] قال فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه ثم التزمه من ورائه ثم قال : يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله { إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين } فلما كان يومئذ التقوا فهزم المشركين فقتل منهم سبعون رجلا وأسر منهم سبعون رجلا واستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وعليهما فقال أبو بكر : يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان وإنني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضدا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [ما ترى يا ابن الخطاب ؟] قال : قلت ما أرى ما رأى أبو بكر ولكني أرى أن تمكني من فلان قريب لعمر فأضرب عنقه وتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم فهوي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت وأخذ منهم الفداء فلما كان من الغد قال عمر فغدوت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وهما يبكيان فقلت : ما يبكيك أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما قال النبي صلى الله عليه وسلم [للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة] لشجرة قريبة من النبي صلى الله عليه وسلم وأنزل الله { ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم * لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم * فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا } فأحل لهم الغنائم فلما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون وفر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم وكسرت ربايعته وهشمت البيضة على رأسه وسال الدم على وجهه فأنزل الله { أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير } بأخذكم الفداء ورواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن جرير وابن مردويه من طرق عن عكرمة بن عمار به وصححه علي بن المديني

والترمذي وقال لا يعرف إلا من حديث عكرمة بن عمار اليماني وهكذا روى علي بن أبي طلحة
والعوفي عن ابن عباس أن هذه الآية الكريمة قوله { إذ تستغيثون ربكم } في دعاء النبي صلى
الله عليه وسلم وكذا قال يزيد بن يثيع والسدي وابن جريج وقال أبو بكر بن عياش عن أبي
حصين عن أبي صالح قال : لما كان يوم بدر جعل النبي صلى الله عليه وسلم يناشد ربه أشد
المناشدة يدعو فأتاه عمر بن الخطاب هـ فقال : يا رسول الله بعض مناشدتك فوالله ليفين الله لك
بما وعدك قال البخاري في كتاب المغازي باب قول الله تعالى : { إذ تستغيثون ربكم فاستجاب
لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين * وما جعله الله إلا بشئ ولو لتطمئن به قلوبكم وما
النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم * إذ يغشاكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من
السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام * إذ
يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب
فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان * ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله
ورسوله فإن الله شديد العقاب } حدثنا أبو نعيم حدثنا إسرائيل عن مخارق عن طارق بن شهاب
قال سمعت ابن مسعود يقول شهدت من المقداد بن الأسود مشهدا لأن أكون صاحبه أحب إلي مما
عدل به أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يدعو على المشركين فقال : لا نقول كما قال قوم
موسى { اذهب أنت وربك فقاتلا } ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك فرأيت
النبي صلى الله عليه وسلم أشرق وجهه وسره يعني قوله حدثني محمد بن عبد الله بن حوشب حدثنا
عبد الوهاب حدثنا خالد الحذاء عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر [اللهم
أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك فخرج وهو يقول
سيهزم الجمع ويولون الدبر] وروراه النسائي عن بندار عن عبد الوهاب عن عبد المجيد
الثقفي وقوله تعالى { بألف من الملائكة مردفين } أي يردف بعضهم بعضا كما قال هارون بن
عنتره عن ابن عباس { مردفين } متتابعين ويحتمل أن المراد { مردفين } لكم أي نجدة لكم
كما قال العوفي عن ابن عباس { مردفين } يقول المدد كما تقول أنت للرجل زده كذا وكذا
وهكذا قال مجاهد وابن كثير القارى وابن زيد { مردفين } ممدين وقال أبو كدينة عن قابوس
عن أبيه عن ابن عباس { ممدكم بألف من الملائكة مردفين } قال وراء كل ملك وفي رواية
بهذا الإسناد { مردفين } قال بعضهم على أثر بعض وكذا قال أبو طبيان والضحاك وقتادة وقال
ابن جرير حدثني المثنى حدثنا إسحاق حدثنا يعقوب بن محمد الزهري حدثني عبد العزيز بن
عمران عن الزمعي عن أبي الحويرث عن محمد جبير عن علي بن أبي طالب قال : نزل جبريل في ألف من
الملائكة عن ميمنة النبي صلى الله عليه وسلم وفيها أبو بكر ونزل ميكائيل في ألف من الملائكة عن ميسرة
النبي صلى الله عليه وسلم وأنا في الميسرة وهذا يقتضي إن صح إسناده أن الألف مردفة بمثلها ولهذا قرأ
بعضهم { مردفين } بفتح الدال والله أعلم والمشهور ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس

قال : وأمد الله نبيه A والمؤمنين بألف من الملائكة فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مجنبة وميكائيل في خمسمائة مجنبة وروى الإمام أبو جعفر بن جرير ومسلم من حديث عكرمة بن عمار عن أبي زميل سماك بن وليد الحنفي عن ابن عباس عن عمر الحديث المتقدم ثم قال أبو زميل : حدثني ابن عباس قال : بينا رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم إذ نظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيا قال فنظر إليه فإذا هو قد حطم وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين وقال البخاري : باب شهود الملائكة بدرا حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا جرير عن يحيى بن سعيد عن معاذ بن رفاع بن رافع الزرقي عن أبيه وكان أبوه من أهل بدر قال جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال [من أفضل المسلمين] أو كلمة نحوها قال : وكذلك من شهد بدرا من الملائكة انفرد بإخراجه البخاري وقد رواه الطبراني في المعجم الكبير من حديث رافع بن خديج وهو خطأ والصواب رواية البخاري والله أعلم وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمر لما شاوره في قتل حاطب بن أبي بلتعة [إنه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم] وقوله تعالى : { وما جعله الله إلا بشري } وما جعل الله إلا بشري { إلا بشري } وما جعل الله إلا بشري { إلا بشري } ولتطمئن به قلوبكم { وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله أي بدون ذلك ولهذا قال { وما النصر إلا من عند الله } كما قال تعالى { فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرفها لهم } وقال تعالى { وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين } فهذه حكم شرع الله في جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمم المكذبة كما أهلك قوم نوح بالطوفان وعادا الأولى بالدبور وثمرود بالصيحة وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل وقوم شعيب بيوم الظلة فلما بعث الله تعالى موسى وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق في اليم ثم أنزل على موسى التوراة شرع فيها قتال الكفار واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك كما قال تعالى : { ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر } وقتل المؤمنين للكافرين أشد إهانة للكافرين وأشفى لصدور المؤمنين كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة { قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين } ولهذا كان قتل مناديد

قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم أنكى لهم وأشقى لصدور حزب الإيمان فقتل أبي جهل في معركة القتال وحومة الوغى أشد إهانة له من موته على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك كما مات أبو لهب لعنه الله بالعدسة بحيث لم يقربه أحد من أقاربه إنما غسلوه بالماء قذفا من بعيد ورجموه حتى دفنوه ولهذا قال تعالى : { إن الله عزيز } أي له العزة ورسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخره كقوله تعالى : { إننا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد } { حكيم } فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته سبحانه وتعالى